حول الف ليلة وليلة

بقلم فؤاد افرام البستاني

في منحدر زقاق البلاط الى بوّابة يعقوب ، بين مدرسة الاحد الاميركية وتمثال اليازجي ، من عن يسار النازل حذرًا على تلك الطريق المرصوفة بالحصى ، الشاهدة بما اثرت فيها اقدام الاجيال المتعاقبة ، على انها اقدم ما بقي من طرقات بيروت القرن التاسع عشر ، يقوم حانوت متواضع ، في احدى زواياه حلّاق ، وفي زاوية اخرى سنكري ، وفي مقدّمه بسطة تزدحم عليها الغلّايات والاباريق والمسارج والاقاع وسائر مصنوعات التنك تلمع برّاقة في وقع ما يتسلّل من اشعّة الشمس ، حتى اذا لثّت اشعتها تحوّل الحانوت الى مقهى يرتاده المشرات من عمّال التنجيد ، ومستخدمي الصناعات الوضيعة ، وحمّالي المنطقة . فيحتبون الى الجدران القريبة ، او يقتعدون الحصير البالي ، يتبادلون التعاليق على احداث النهار بين رشفة ورشفة ، حتى تأزف ساعة الحكواتي . فيعلو الطاولة الصغيرة ، على كرسي لا سند له ، شيخ رقيق الجسم ، حليق الذقن ، بارز تقاطيع الوجه ، مكشوف الرأس عن صلعة برّاقة ، يحمل شاربين أثريّين ، ونظّارتين تركبان ، على قلق ، طَرَف الارنبة . فيتنحنح طويلًا ويَوْحَ ، ويبسُط على قِنبازه المرقّع كتاباً دسم الاوراق ينتم منه بعض السياقات ، ممثلًا تفاصيلها المهمّة بيديه وعينيه وانفه وشفتيه وسائر جوارحه . حتى يضطرب الكرسي من تحته ، فتضطرب الطاولة ، فتضجّ ارجاء الحانوت بالتصدية وهتاف الاستحسان . ولا تنتهي الليلة من الألف الّا وفي حضن الحكواتي قُرَيشات معدودات حمّلها بكده وعرق جبينه . وينصرف السامعون على امل استئناف الليلة الآتية ، هازئين ، ولا هزء صاحب العنقود ، برؤاد السينما وسائر الملاهي العصرية .

فاذا كانت بيروت لا تزال رانجةً فيها سوقُ الف ليلة وليلة ، فكيف بسائر المدن الشرقية ؟ كيف بالقرى النائية ، والدساكر المنفردة ، لا تتسلّى

عامتها الأمثل هذه القصص الشعبية ، على توالي القرون ؛ فلا تكاد ترضى عنها بديلا ، لو وُجد هذا البديل . قد يكون من اسرار هـذا الرواج التقليدُ المتمكن في السامعين ، وقد تكون دقة الوصف في الكتاب ، وقد يكون اهتمامه بتصوير الطبقات الوضيعة خاصةً ، ومَن ينجح فيها من شُطّار اللصوص ونوابغ المحتالين ، ومَن يختلط بها من الامراء المتَدَرويشين ، وقد يكون تأثر بعض حكاياته بالخوارق كآتي الجنّ والعفاريت والسَحَرة والعرّافين . وقد يكون كلّ هذا معاً . الّا ان الواضح الظاهر انما هو هذا الرواج المتتابع لألف ليلة وليلة ؛ رواجٌ لا يدانيه سوى شُهرة الكتاب لدى ادباء اوربة ، واهتمته في نظر المستشرقين ، حتى لا يشذّ عن هذا التقدير الشامل الّا ادباء العربية ، وهم الأجدرُ بدرسه ، والأولى بالتعمق في تفصيل موضوعاته وفنونه وأفكاره . الّا انهم جُبهوا ، على الأرجح ، بما في اساليبه من ضعف ، وما في تعابيره من ركاكة ، فصدفوا عما وراء ذلك ، وما زلنا نؤخذ بجمال المظهر ، وبهرَج العَرَض حتى ليفضّلُ الواحدُ منّا مقامات الحريري واساجيع الزمخشري . وما كنّا يوماً من دُعاة إهمال الشكل او الإعراض عن حسن الأداء . وغنيٌ عن البيان ان الأثر الفنيّ لا يتكامل الّا اذا قرن جمـال الجوهر بجمال العرض فتكافأ وتناسبا . على ان المبنى الضئيل لا يمنع جمال المعنى ، لو وُجد ، كما ان زخارف الزيّ لا تغني عن معنى غير موجود .

نفهم هذا ، فلا نستغرب من اندره جيد — وهو من المعجبين بألف ليلة وليلة — ان يستغرب ازدراء الادباء المصريين هذا الكتاب العالمي . وهو انما يقرأه في ترجمة ماردروس الرائعة ، وهم يتوقّفون لدى ما في اخراجه من فقر بالمفردات وضعف في التعبير . أوَ لم يقم منهم مؤخرًا مَن أزرى على واضعيه في مجلة «المقتطف» ، بما لم يكن منتظرًا من أديب له سهمٌ فالجٌ في الفنّ القصصي .

واما المستشرقون فهمُهم درس الكتاب تاريخيًا ، واجتماعيًا ، وادبيًا ، وقد وقفوا عليه الابحاث العديدة ، والمناقشات المستطيلة حتى حفلت المكتبة الاستشراقية بما لا يقلّ عن مائتي مؤلف تتوالى في « الف ليلة وليلة » ترجمةً ، وتعليقاً ، ودرساً منذ اكثر من قرنين ؛ وكان آخرها ما يهمنا وصفه الآن .

وهو كتاب الاستاذ نيكيتا إليسييف Nikita Elisséeff ظهر باللغة الفرنسية في منشورات «المعهد الفرنسي في دمشق» سنة ١٩٤٩[1] ؛ وغايته تصنيف موضوعات الف ليلة وليلة وفكرها وفنونها وسائر العناصر القصصية فيها . فاقبل على الكتاب يُنفق الاشهر بل السنوات في درس إطاره وتحليل اجزائه ، وترتيب سياقاته ، وتحديد لياليه ، وتتبّع عناصره ، من لغة الى لغة ، ومن بيئة الى الى بيئة ، ومن عصر الى عصر ، من الجرثومة الهندية العريقة ، الى الصيغة الفارسية ، الى النقل العربي ، قبل القرن العاشر ، الى ما دخل في الكتاب بعد ذلك من حكايات واساطير وخرافات من مصادر متنوّعة اسلامية ومسيحية ويهودية ، عربية واجنبية ، دُوّنت في العراق ، والشام ، ومصر ، حتى اواخر عهد المماليك .

وكان لابدّ من الاطلاع على آثار السابقين في هذا الموضوع . ومشكلة اصل «الف ليلة وليلة» على اقلام المستشرقين منذ اوائل القرن الماضي ، منذ ان وصف سيلفستر دي ساسي اولى طبعاته في كلكوتا ، الظاهرة سنة ١٨١٤ ، فارتأى ان للكتاب عدّة مؤلفين ، وشكّ في قول المسعودي بنقله عن الفارسية . فردّ عليه دي هاتر . وتوالت المناقشات ، حتى كاد يستقرّ الرأي على ان الكتاب مجموعة قصص متباينة المنشأ زماناً ومكاناً ، متعدّدة المؤلفين ، متنوّعة الغايات . فدُفع الاستاذ إليسييف الى مراجعة ما لا يقلّ عن ١٣٠ بحثاً في الموضوع ، فضلاً عن طبعات الكتاب وترجماته ؛ وعَرَضَ نتائجَ ابحاثه في هذا المؤلف القيّم الذي نراه يحتلّ مركزاً خاصاً لا في «تاريخ الف ليلة وليلة» فحسب ، بل في تاريخ الدروس القصصية الشعبية اجمالاً .

يبدو الكتاب على ثلاثة اقسام : الدروس ، التصنيف ، الجداول والفهارس .

اما قسم الدروس فيتناول ، بعد المقدّمة ، ستة فصول خصّ المؤلف اولها بالبحث في اصل الف ليلة وليلة ، عارضاً خلاصة المناقشات في ذلك على نحو ما ألمعنا اليه سابقاً ، مضيفاً اشارات مفيدة الى ما قد يصلح معالمَ لتأريخ بعض

1) Nikita Elisséeff, *Thèmes et motifs des Mille et une nuits. Essai de Classification.* [Institut français de Damas.] In. 8°, 242 pp., avec une carte des longueurs relatives des contes. Beyrouth, 1949

الحكايات في الكتاب ، كالتلميحات الى الاحداث التاريخية او الى بعض امراء مصر ؛ والشواهد الشعرية المقحمة إقحاماً في كثير من الحكايات ، وهي في اكثرها لشعراء لم يتأخر زمنهم عن القرن الرابع عشر .

وتناول الفصل الثاني إطار الكتاب : حكاية الملك المتعوّد قتل كل امرأة يتزوّجها ، وامرأته شهرزاد ، وكيف تخلّصت من القتل بفضل حذقها ، واختراعها اسلوب الحكايات ، وقطعها مجرى الحديث عند الموقف الحرج . ولا شك في ان العرب نقلوا هذا الإطار عن الفرس ، وان يكن من طبيعة القصص الهندي في المهابهاراته والپانتشاتنترا تداخل الحكايات بعضها في بعض ، والانتقال من الواحدة الى الاخرى دون الخروج عن الإطار الاصلي ، على نحو ما نرى في كليلة ودمنة ، وهي حلقة من سلسلة الپانتشاتنترا :

— لا تفعلْ هذا والّا اصابك ما اصاب فلاناً .

— وكيف كان ذلك ؟

او ما تقول شهرزاد في آخر الحكاية :

— ما سمعتَ الآن ليس بشيءٍ بالنسبة لما ستسمع !

— وكيف ذلك ؟

وهكذا ينتقل الحديث من حكاية الى حكاية ، على تلك العلاقة الواهية.

وينتقل المؤلف في الفصل الثالث الى درس الحكايات نفسها في مختلف انواعها : الاصلية منها ، تلك التي كانت دون شك ، في « هزار افسانه » الذي يذكره المسعودي ، والدخيلة المؤلفة في بغداد ، ثم في مصر . ولا يتسع الوقت للاشارة الى كل منها وإن لماماً .

ثم يعرضُ لمخطوطات الكتاب وطبعاته في كلكوتا ، وبولاق ، وبيروت ، والقاهرة ، وبرسلو . ويتبسّط في وصف ترجماته ، وفي طليعتها ترجمة غالان Galland الفرنسية الظاهرة في باريس من السنة ١٧٠٤ الى السنة ١٧١٣ في اثني عشر مجلداً ، والتي استعان في الحصول على مادة مجلداتها الاربعة الاخيرة برجل ماروني من حلب اسمه حنا ، عرفه في باريس سنة ١٧٠٩ ، وكان قد انتهى من طبع المجلد الثامن ، ولم يبقَ لديه من النصوص ما يترجمه . فاقام

حنّا يكتب له الحكايات بالعربية ، وهو ينقلها حتى اتمّ المجموعة ، وفيها من حكايات حنّا مما لا يُعرف في طبعات الكتاب البولاقية والهندية امثال : علاء الدين والفانوس العجيب ، علي بابا ، سيدي نعمان ، وغيرها . ويعرّج على سائر الترجمات عن الاصل فيذكر اربع عشرة منها الى اللغات الفرنسية والانكليزية والالمانية والدانمركية والروسية . ومن المفيد ان نضيف الى ذلك ذكر الترجمة الايطالية الشائقة التي قام بها مؤخرًا الاستاذ غبريالي .

وينتهي الى القسم الثاني من الكتاب وهو التصنيف ، تصنيف الموضوعات والفِكَر وفنون السرد وسائر العناصر القصصية ، يرتّبها على الحروف الابجدية بوعي تام ، وانتباه دائم ، فيخدم الكتاب الخدمة الجلّى ، وكأنه يفهرسه بكامله ، ويضع هيكله مجرّدًا امام الباحثين . حتى اذا تمّ له العمل ، وهو اهمّ اقسام الكتاب ، انتقل الى ما وسمناه بالقسم الثالث دالّين به على الجداول والفهارس .

فبدأها بجدول المقابلات . اورد فيه عناوين الحكايات جميعها ، وهي تبلغ ١٦٨ عدا ما تداخلها من اخبار ثانوية ، وقابل بين مواقعها في اربع عشرة طبعة وترجمة . وارفق كل ذلك بلحق نشر فيه نصوص المسعودي وابن النديم والمقريزي في كتاب «الف ليلة وليلة» ، ثمّ بمخطّط واسع مثّل فيه نسبة الطول بين ليالي الكتاب وفقًا لطبعة كلكوتا الثانية .

وبعد ان نشر ثبتًا باسماء المراجع والمآخذ البالغة ١٣٠ باللغات العربية ، والفرنسية ، والانكليزية ، والايطالية ، والالمانية ، والروسية ؛ وفهرسين باسماء الاعلام والاماكن ؛ خصّ بابطال الف ليلة وليلة وسائر اشخاصها جدولًا مفيدًا جدًّا رتّبه على الابجدية وتتبّع مآثر كلّ منهم في مختلف الحكايات .

هذا عرض سريع لكتاب الاستاذ إليسيف النفيس . وهو في نظرنا اوجز من ان يستوعب خصائصه ، واخصر من ان يحيط بفوائده جميعاً . ولعلّه يدفع بعض ادبائنا الى الاطلاع عليه ، والافادة منه ، والاقتداء به ، فتقلّ في ايجاننا ودروسنا الاساليب العاطفية ، ونستبدل بها شيئًا من دقة الموضوعية ، وترصُّن العلم !